أظـــرف يوم !

للدكتور زكي مبارك

إنتظر أبنائى سيارة الليسيه خمسين دقيقة أو تزيد . انتظروها على باب البيت ، بين المطر المنهمر والريح العَصُوف

وحين أشفقتْ أمهم فدعتهم إلى الدخول أجابوا ضاحكين : هذا أظرف يوم !

ثم جاءت السيارة فأقلّتهم برفق إلى معهدهم المحبوب ، ولعلهم لم يحبوا معهدهم بأكثر مما أحبوه فى هذا اليوم ، فلن تكون الدروس غير حكايات وأقاصيص ، ولن يكون المدرسون غير أطفال كبار يفرحون بمنظر المطر الهتّان !

وبقيت فى البيت أسائل نفسى عما أصنع ، فما يجوز أن أخرج فى مثل هذا اليوم ، وهو لا يصلح لغير اقتناص الأوابد من الذكريات

لم يكن المطر غريباً علىّ ، فقد تمتعت به أعواماً في الديار الفرنسية . ولن أنسى فضله يوم دخلت مدينة الهافر أول مرة فى سنة ١٩٢٧ ، فقد أتاح الفرصة لمحادثة ربحانة مطلولة على غير ميعاد ... نظرت إليها بعين الغريب الحائر وقلت :

Madame, est-ce qu'il pleut souvent ici ?

وبين السؤال والجواب تلاقى روحان ، وكان المطر سبب التلاقي

وفكرت فى « المطرية » التى نسيتها على سُلَّم البيت المحبوب فى باريس ، يوم فارقتها آخر مرة فى صيف سنة ١٩٣٣[1]

وعلى محطة ليون تذكرت تلك « المطرية » ، وجاءت فلانة لتوديعى ، فلانة التى كانت قالت :

Docteur, vous vous trompez !

يومئذ أوصيت فلانة بأن ترجع إلى البيت المحبوب لتأخذ المطرية التى نسيتها هناك

تذكرت وتذكرت

تذكرت أنى حين رجعت إلى بغداد فى صيف سنة ١٩٣٩ مع « وفد مصر » للاشتراك فى تأبين الملك غازى رأيت فى شارع الرشيد إنسانة تشبه تلك الفلانة ، فطوّفت حولها مرات إلى أن صرخت : Tiens ! Je ne vous pas reconnu !

فقلت : لا غرابة فى أن لا تعرفينى ، فشمس بغداد تزيغ عيون الباريسيات

كان أمر هذه الفلانة عجباً من العجب ، كانت فتاة غريبة الروح ، وقد تركت دينها لتعتنق دينى ، بعد محاولات روحية يضيق عن شرحها هذا الحديث

وما السبيل إلى قضاء لحظات أعرف بها كيف تحدّرتْ هذه الموجة إلى بغداد ؟

— تدخل هذا الفندق ؟

— لا ، فهو فندق مطروق !

— وهذا الفندق ؟

— هو فندق حوله شبهات !

العالية . فتؤخذ الضرائب من القادرين لمعونة من يحتاجون إلى المعونة ومن تتوقف على معونتهم سلامة البنية الاجتماعية

وقد أوشك أن يصبح المالك فى ضيعته أو فى مصنعه مديراً موظفاً من قبل الأمة لا يتقاضى أجراً على عمله أكثر من الأجر الذى يتقاضاه المدير ، بعد حسبان الضرائب والأتاوات

فهذا هو اتجاه الإصلاح فى المستقبل القريب ، وسيمضى على هذا النحو فيما نعتقد إلى المستقبل البعيد

على أساس الديمقراطية والحرية الفردية والتعاون بين الطبقات ينبغي أن يقوم كل إصلاح محمود العواقب ، وعندئذ نستطيع أن نقول إن انتصار الديمقراطية منطق مفهوم ، لأنه انتصار للحرية الفردية وللحرية العالمية ، ومرحلة معقولة من مراحل التاريخ .

عباس محمود العقاد

---

(١) المطرية هى الكلمة التى أختارها ترجمة لكلمة Parapluie ، ويخطىء من يسميها شمسية

— وإلى أين نتجه يا شيطانة ، وقد عرفتِ من مخفايا بغداد أضعاف ما أعرف ؟

— إلى فندق مود

وكان فندق مود هو الفندق الذى نزل به « وفد مصر » ، وكان اجتماعى بها فيه يُعَدّ فضيحة فى أنظار المصريين والعراقيين

قال حمد باشا الباسل : ما تلك بيمينك يا دكتور مبارك ؟

فأجبت : هى حيّة هديتها إلى الإسلام يوم كنت فى باريس !

ثم دارت بينى وبينها كؤوس من الشراب الحلال

وهممت بدفع ثمن الكؤوس فاعترض الأستاذ عبد المسيح وزير ، وتلطّف حمد باشا فقال : لو رأيتكما بمصر لجعلت « قصر الباسل » مقركما إلى آخر الزمان !

ثم دعانى حمد باشا إليه فى جانب من بهو الفندق ليُسِرّ فى أذنى كلمات

— ما هذا الذى تصنعه بنفسك يا دكتور مبارك ؟

— وماذا أصنع بنفسى يا باشا ؟

— ما قدومك علينا بهذه المخلوقة المتبرجة ؟

— هى التى قدمت علىّ من باريس

— أنت عرفت هذه الفتاة فى باريس ؟

— وهديتُها إلى الإسلام

— أنت تَهدى إلى الإسلام ؟

— إسألها تخبرك !

ثم نظرت إلى حمد باشا وقلت :

— هل تعرف « الحَلُوبة » ؟

— وما الحلوبة ؟

— هى أمطار عنيفة مزلزلة تفاجىء العراق فى بعض أيام الشتاء

— فهمتُ فهمت !

— ما ذا فهمت يا باشا ؟

— فهمت أن هذه حلوبة تقع على قلبك فى الصيف لا فى الشتاء

— نعم ، وبهذا تتم المعجزة فى الحياة العراقية !

ثم عاد حمد باشا فقال :

— أيطول هذا المجلس ؟

— أى مجلس ؟

— المجلس الذى يدور فيه الغزل بطريق العلانية !

ثم التفتّ فرأيت الجارم بك يوغل فى التنكيت ، ورأيت الدكتور عزام يروى أشعاراً ، فأخذت بذراع الفلانة وانصرفت

ولكن إلى أين ؟

إلى الفندق الذى تقيم به مع خطيبها العراق ، وكانت حدثته عنى أحاديث شوّقته إلى أن يرانى

— دكتور ، أنت الذى سميت هذه الفتاة ليلى ؟

— وأنا الذى علمتها كيف تكتب اسمها بحروف عربية

— وترى أن أقترن بها ؟

— وأرى أن « تتطوق » بها ؟

— إيش لون ؟

— تلك عبارة مصرية ، ستفهمها بعد حين

ولم أدر ما جدّ فى الدنيا بعد ذلك اليوم ، وإنما أذكر أنى تلقيت خطاباً من (ليلى المريضة فى باريس) تقول فيه :

قُتِل السيد رستم حيدر ، وكان النصير الأوحد لخطيبى ، فما الذى ترى فى مصيره ومصيرى ؟ »

فى تلك اللحظة تذكرت سعادة الأستاذ طه الراوى ، وهو غاية فى كرم النفس وشرف الروح ... هل أكتب إليه بخبر فلانة وفلان ؟

وأسرعت الدنيا فأثارت الحرب ، وأمست أحاديث المحبين عبثاً فى عبث ، ومجوناً فى مجون !

كانت الحرب هى «الحَلُوبة» الدنيوية لا العراقية ، والعراق مظلوم فى اتهامه بالشقاق ، فتاريخه فى أسوأ أحواله أهدأ من تاريخ الأمم التى تدّعى الشوق إلى السلام والقرار والاطمئنان

حلوبة العراق لا تدوم غير ساعات ، أما حلوبة الغرب فلا تنقضى إلا بعد سنين

ما هذا الذى أرى ؟ ما هذا ؟ ما هذا ؟

هذه أمطار وبروق ورعود !

لم يبق من تقليد مصر للغرب إلا أن تتشبه بجوه فى هـذا الهذَر المقوت !

وأنظر فأرى صدرى ينقبض حين يخفّ المطر لحظة أو لحظتين ، وكان المظنون أن أفرح بميل الجوّ إلى الاعتدال

ما السر فى هذه النزعة الغريبة ؟ ما السر فى الفرح بهطول الأمطار فى بلاد أغناها النيل عن الغيث ؟

لعل ذلك يرجع إلى أن « الإنسان الأول » يحتلّ صدورنا من حيث لا نعرف ، وإلا فكيف جاز لأبنائى أن يقولوا إن هذا اليوم هو أظرف يوم ؟

كان الماء من أسباب الوقاية عند القدماء ، الوقاية من غارات السباع والوحوش ، وكانت المياه سبباً فى انتصار المصريين فى أعظم معركة من معارك الحروب الصليبية ، وهى المعركة التى اشترك فيها النيل ، فقد أحاط بالأعداء من كل جانب ، وقضى عليهم بالخذلان

وهنا أذكر حواراً دار فوق منبر الأزهر فى أيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩ :

حضر الخطيب محمد بك أبو شادى ذات ليلة ليحدثنا عن الأخطار المخوفة من سيطرة الإنجليز على السودان ، فقال فيما قال إن تلك السيطرة قد تكون سبباً فى منع مياه النيل عن الأراضي المصرية

عند ذلك علوت المنبر وقلت ينبغى أن نبحث عن أسباب منطقية لاحتفاظ مصر بالسودان . وأنا أرى أن مسألة المياه قليلة الأهمية ، لأن حياة السودان فى تحدر مياه النيل إلى الأراضى المصرية . ولو وجد السودان من يساعده على احتكار مياه النيل لتعرض لآفات من الحُمّيات لا يعلم أذاها غير علّام الغيوب

ثم ماذا ؟

ثم طافت بالقلب خواطر حول شعور المصريين بظواهر الوجود

وأقول بصراحة إن الذين ينظمون الأغانى يخطئون أبشع الخطأ فى الإكثار من التغنى بالرياض والبساتين

إن المصريين لا يفهمون هذه الأشياء ، ولن يذوقوها لو فهموها ، لأن مصر خضراء فى جميع الفصول ، وهى من أجل هذا لا تشعر بقدوم الربيع ، لأن دهرها كله ربيع

الروض كلمة غير مفهومة ، أو كلمة لا تذاق ، فى الديار المصرية على نحو ما يفهمها ويذوقها شعراء العرب فى البلاد التى تتأذى بالشتاء

المصرى لا يدرك تقلبات الجو إلا فى أندر الأحوال ، وهل فى مصر جوٌّ يتقلب ؟

دخلت على المسيو دى كومنين وأنا محزون فى يوم مَطير فقال :

Mon cher ami, aujourd'hui il pleut, demain il fera beau.

ولكن المطر لم ينتظر إلى الغد ، فقد صفت السماء قبل أن ينتهي الحديث

والمسيو دي كومنين يلازم سرير المرض منذ أسابيع ، ولم أفكر فى عيادته لأنى أكره رؤية الآساد وهى مراض

سمعت أيضاً أن الأستاذ محمد الهمياوى مريض ، وأن أطباء مستشفى الدمرداش قد احتجزوه عامدين بعد الشفاء ، لأنهم علموا أن أحد أبنائه مات ، وليس من المصلحة لمريض في دور النقاهة أن يدخل بيتاً شعاره السواد

هل يعرف أبناء هذا الجيل أن الهمياوى كان أخطر مفنّد لمشروع « ملنر » فى السنين الخوالى ؟

عند الله جزاؤك يا صديقى ، لا عند الوطن ، فقد كدت أومن بأن الوطن المصرى لا يحفظ الجميل

الهمياوى مريض ، وسيعافى بإذن الله حين يقرأ هـذه الكلمات ، فلعل دواءه فى أن يجد صديقاً يذكره بالخير وهو عليل

ما هذا الجو العبوس ؟ وما هذا المطر الهتُون ؟

وما شقائى بمرض الأستاذ محمد الهمياوى ومرض المسيو دى كومنين ؟

وأين الأستاذ محمد عوض جبريل ؟

أين إخوان عرفتهم يوم كانت الدنيا تسمح بأن يأنس صديق إلى صديق ؟

إن الأستاذ أسعد داغر مريض منذ شهرين ، وهو صورة من صور الوداد الصحيح ، فأين من توجع لعلته بقصيدة في جريدة الأهرام ، وهي تنشر قصائد في التوجع لمرضى الروس واليونان ؟

ثم ما ذا ؟

ثم أنتهز هذه الفرصة لتوضيح حقيقة غفل عنها أكثر الباحثين فأقول :

ليس في مصر أحزاب بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون ، لأن جو مصر لا يوحي بالاختلاف كما يوحي بالائتلاف

وإذن يكون النجاح الحزبي في مصر مقصوراً على الجماعات التي تعرف كيف تأتلف ، وهذا هو الواقع بالفعل ، فما فازت جماعة في مصر إلا بمراعاة ما في الجو المصري من الثبات

والفرد كالجماعة في مصر ، ففي مقدور كل فرد أن ينجح إذا مشى في طريق واحد إلى آخر الشوط ، أما التنقل من حال إلى أحوال فهو نذير الانحلال

الإنسان ابن جوه ، وجو مصر لا يعرف التقلب ، ولو راجعنا تواريخ الفائزين في معترك الحياة المصرية لرأيناهم جميعاً من أهل الثبات في الأفكار والآراء

إن المصري يتكلف ويتصنع حين يرائي ، لأن جو مصر لا يساعد على الرياء

والحقد الأسود في مصر لا يقع إلا من رجل نَسبُهُ في مصر مدخول . وبكلمة واحدة تصفي ما بينك وبين خصمك من أبناء هذه البلاد ، لأن فطرة المصري منقولة عن جوه ، وهو غاية في الصفاء

ولكن ما هذا اليوم « الملخبط » ؟

إني أخشى أن يجعل مقالي هذا « لخبطة في لخبطة » !

هو ذلك ، فقد انتقلت من حديث إلى أحاديث بلا نظام ولا ترتيب .

سيصفو الجو ، سيصفو بعد ساعات ، لا بعد أيام

الإنسان ابن جوه ؟

كذلك قلت ، فما بالي أعاني شجوناً تجترب في جميع الأحايين ؟

ما حالي في دنياي ؟ وما نصيبي من الجو المفطور على الصفاء ؟

لا بأس ، فبحرف أو نصف حرف أبدد ما حولي من المصاعب حين أريد ، ولن أريد ، لأن الصراحة في الخصومة معنى نقلتُه عن وطني ، وأنا لوطني أوفى الأوفياء

أعظم عيب في مصر هو أنها لا ترضى عن التفاوت في المواهب فهي لا تلتفت أبداً إلى الأوساط من الرجال في أي ميدان

وهذا العيب فضيلة عبقرية ، ونحن به فرحون

لن نترك فرصة تمرّ بلا برهان على صحة البنوّة لهذه السماء وما صحّتْ في غير مصر سماء ، فتقشّعي أيتها الغيوم الدخيلة على سماء هذه البلاد

هذا أظرف يوم ؟

نعم ، هو أظرف يوم ، لأني أسلمت فيه العنان للقلم الجموح

زكي مبارك

المنقـــذة

مذيلة بقصة « حفلة شاي »

أحدث مؤلفات

محمود تيمور بك

جمعت بين طرافة الموضوع ،
عمق التحليل ونصاعة الأسلوب .
أسمى نموذج للفن الروائي الرفيع

الثمن ١٠ قروش والبريد ٢ قرشان

الناشر

دار الكتب الوطنية

ميدان الأوبرا — مصر